المدرسة الفيزيوقراطية – الطبيعية–

لقد تميز القرن الثامن عشر بانتشار الروح العلمية في دراسة المجتمع البشري مثله مثل الدراسة المتعلقة بالفيزياء و الكيمياء و العلوم الطبيعية و نشأ اعتقاد بأن نشاط المجتمعات الإنسانية ألية و آلية هذا النشاط تشبه ألية علوم الفضاء. أو كما يعتقد Petty William و François Quesnayبأن هناك تشابه بين جسم الانسان و الجسم الاجتماعي حتى أنهم ذهبوا الى القول بأن هناك " فيزيولوجيا اجتماعية" و حاولا دراسة دوران الدخل بين الطبقات الاجتماعية على طريقة دوران الدم بين أعضاء جسم الانسان اضافة الى أن هناك آخرون حاولوا ايجاد التشابه بين ميكانزمات علم الفلك و الميكانيك و بين " الآليات " الاجتماعية.
و رغم أن البحث عن التشابه بهذا الشكل بعيد عن المنطق و أنه اهمل فيما بعد الا أنه برهان على نية الفيزوقراط Les Physiocrates في تحليل الظواهر الاجتماعية بالاستناد الى قوانين علمية.
و سادت في ذلك الوقت بعض الاتجاهات الفلسفية الحرة في مجال الفكر،فكانت الإشادة بفكرة الحرية على أيدي العديد من الكتاب و المفكرين الذين نادوا بالخضوع الى حكم العقل و المنطق، و نقلوا الى الناس إيمانهم بطبيعة الانسان الخيرة و قدسوا الفرد مجردا من العلاقات الاجتماعية و قد نقل الفيزوقراط هذه الأفكار الفلسفية الى دراستهم الاقتصادية، و لكن الطابع الأساسي الذي تتصف به هذه الأفكار و الذي جعلها متناقضة مع الأفكار التجارية و الطابع الليبرالي (الحرية) فهي تعتمد على المصلحة الفردية كقاعدة لكن لكل التصرفات الاقتصادية ،مما يستدعي الدفاع عن الحرية الفردية و الحيلولة دون تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية. فالحرية الاقتصادية (liberalisme) هي الضمان الأساسي و الوحيد لتوازن القطاعات الاقتصادية و الاجتماعية.
على أن اتفاق دعاة الحرية الاقتصادية حول تقديس الفلسفة الفردية و عدم تدخل الدولة في الاقتصاد لا يعني أنهم متفقون في كل شيء و خاصة في طريقة التحليل و في النتائج المستخلصة منه، فالحرية الاقتصادية كانت أول الأمر شعارا للفيزوقراط الفرنسيين ثم انتقلت بعد ذلك الى الكلاسيكيين خاصة في انجلترا.

و الفيزوقراطية La physiocratie مدرسة أسسها François Quesnay طبيب لويس الخامس " 1694_1774" و بعده واصل أتباعه توضيح و تعميق أفكار المدرسة الفيزوقراطية خصوصا Dupont de "1715_1789" Le père morabeau Nemours 1739و (1721_1793) le Mercier de la Riviére و labbe Boudeauالأب بودو . (1730_1792) و من أهم مبادئ و نظريات المدرسة الفيزيزقراطية[1]:

_1النظام الطبيعي:

الفيزيوقراطية هي علم النظام الطبيعي،ان الفيزيوقراط هم أول من قال بفكرة وجود قوانين طبيعية تحكم الشؤون الاقتصادية،و هذه القوانين لا دخل لارادة الانسان في ايجادها و ارجعت هذه القوانين الى القدرة الالهية.

فالاهتمام الكلي للفيزوقراط حول فكرة وجود قوانين طبيعية تنظم الشؤون الاقتصادية صرفهم من ايجاد تعريف جامع و موحد لهذا" النظام" فالبعض منهم يقول بأنه " النظام الذي يؤمن الملكية و الأمن و الحرية" أو بصورة أدق " هو النظام الذي اراده الله لسعادة البشر هو النظام الالهي". و في هذا يقول " M. de la riviére النظام الطبيعي أو النظام الأساسي هو ذلك النظام الذي لا تستطيع المجتمعات الانسانية الا الأخذ به و هي تسعى لتحقيق مصالحها الحقيقية " ، كما يضيف " أن مصالحنا المختلفة و اراداتنا المتضاربة تجتمع و تتكامل كي تؤمن لكل فرد منا السعادة المنشودة .و ان هذه الاختلافات المبدئية التي تؤدي الى تناغم نهائي تعمه السعادة و البشر هو من ارادة و عمل العناية الالهية التي تود ان يسود الهناء و السعادة، كل فرد من البشر يحيا على الأرض. "

و يمكن تلخيص النظام الطبيعي بأنه:

_1نظام أساسي:

أي ان كل المجتمعات لابد أن تخضع له حتى تتحقق مصالحها،و ان القوانين الطبيعية الأبدية لن تكون عرضة لاي تغيير أو تبديل.

---

[1] دويدار ، **مرجع سابق** ، ص 105.

_2انه الهي أي النظام الدي أوجدتنه العناية الالهية لسعادة البشر و هذا الطرح هو محاولة من طرف الفيزوقراطية للملائمة بين النزعة الميتافيزيقية باعتبار الإرادة الإلهية و النزعة العلمية باعتبار الضرورة الطبيعية في تحليل الواقع و تطوره.

_3ان النظام الطبيعي لا يطبق اعتمادا على النصوص الإلهية ، بل يجب معرفة قوانينه بصورة مسبقة حتى لا يقوم الأفراد بمخالفتها و يرى الفيزوقراط بأن هذا النظام و قوانينه يكتشفن بالبداهة و لكن التوصل الى هذه " البديهيات "يتم عن طريق العقل ،فبأعمال العقل نصل إلى الحقيقة و بالتعليم و التثقيف ننشر هذه الحقيقة على الملأ.

و هذا النظام لا يكشف أسراره الا لذوي العقول و الأفكار النيرة و المتفتحة، و هؤلاء هم النبلاء و المالكون و رجال الدين و العلم حسب الفيزوقراط.

_4ان تطبيق النظام الطبيعي يستدعي بالضرورة وجود سيادة و هذه متمثلة بالملك الذي يجب عليه حماية النظام الطبيعي،و يساعده في هذا العمل النخبة المثقفة المستنيرة.

ان المحتوى الاقتصادي للنظام الطبيعي يمكن تلخيصه في نقطتين:

_1احترام حق الملكية الفردية كحق أساسي لابد منه لانتاج الثروة.

_2احترام الحرية الفردية، حيث يترك للانسان الحرية في استعمال ملكياته كيف يشاء و اختبار العمل الذي يريد القيام به. و الفيزوقراط هم الذين وضعوا الشعار الشائع " دعه يعمل،دعه يمر "laisser faire , laisser passer " "أي دعوا الانسان يعمل ما يريد فانه بذلك يحقق المنفعة العامة عن طريق تحقيق منفعته الشخصية.[2]

-3المنتج الصافي: انطلق الفيزوقراط في تحديد مفهوم الثروة من رفضهم للمفهوم الميركانتيلي الذي يخلو من المعادن الثمينة و الثروة،في ذلك يقول " quesnay ان النقود ليست بحد ذاتها سوى ثروة عقيمة و لا يمكنها أن تخلق دخل الا بواسطة البضائع التي تنتجها."

و الثروة حسب الفيزوقراط هي " كمية من المنتجات التي بإمكانها ان نستهلك منها ما يطيب لنا و يدون حساب دون أن يؤدي هذا الاستهلاك الى شح المنبع الرئيسي لهذه المنتجات."

---

[2] دويدار ، **مرجع سابق** ، ص 115.

و فيها هذا يضيف M.de la Riviére عن الثروة بانها كتلة القيم التي نستطيع استهلاكها دون ان نفتقر او نعجز عن إعادة إنتاجها باستمرار". فالزراعة هي النشاط الاقتصادي الوحيد حسب الفيزوقراط القادر على خلق الثروة، اما الصناعة و التجارة لا يخلقان شيئا اذ أن كلا منهما نشاط اقتصادي عقيم ينحصر دورهما الى تحويل قسم من هذه الثروة و نقلها.

و الثروة اثناء تشكلها تتطلب مصاريف ضرورية " شراء المواد الأولية "السلعة، حصة المزارعين،....الخ.فاذا طرحنا من المحصول المصاريف الضرورية بقي فرق يعادل الزيادة التي تحققت في الثروة و يسمى هذا الفرق المنتج الصافي. و بصورة أخرى فهو يساوي " الفرق بين ما ينفق للحصول على سلعة ما و بين نتيجة العملية الانتاجية التي هي السلعة نفسها" هذا المنتج الصافي هو هبة من هبات الطبيعة، حيث يعتقد الفيزوقراط أن عمل الله الخلاق لا يظهر الا بالزراعة. و قسم الفيزوقراط عوامل الانتاج الى ثلاثة أقسام تدور كلها حول محور واحد هو الأرض[3]:

_1الأرض :و هي معطاة تقدم الخيرات بصفة عفوية.

_2العمل :و يعتبر من عوامل الإنتاج اذا انصب على الفلاحة، لأن تلاقي عنصر العمل مع الطبيعة يؤدي الى تحقيق المنتج الصافي اما العمل في القطاعات ألأخرى غير منتج.

_3راس المال :و يتمثل في الاستثمارات التي يقوم بها المنتجون و حسب الفيزوقراط فانه لا يعتبر من عوامل الإنتاج الا اذا كان على شكل رؤوس أموال عقارية أي متعلقة بالأرض.

الجدول الاقتصادي الذي افترضه quesnay : تم شرحه خلال المحاضرة باستفاضة

[3] سمث آدم ، **بحث في أسباب وطبيعة ثروة الامم – الجزء الاول –** ، بغداد ، معهد الدراسات الستراتيجية ، 2007 ، ص 204.

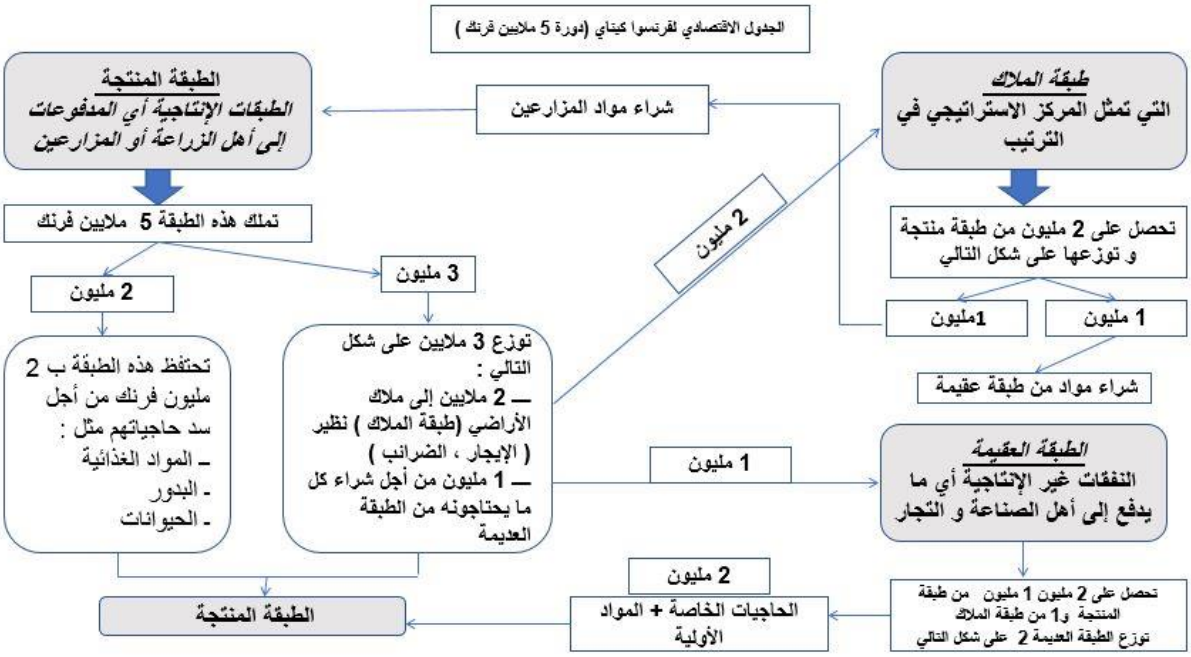
الجدول الاقتصادي لقرنسوا كيناي (دورة 5 ملايين قرنك)
الطبقة المنتجة
الطبقات الإنتاجية أي المدفوعات إلى أهل الزراعة أو المزارعين
شراء مواد المزارعين
طبقة الملاك
التي تمثل المركز الاستراتيجي في الترتيب
تملك هذه الطبقة 5 ملايين فرنك
2 مليون
3 مليون
2 مليون
تحصل على 2 مليون من طبقة منتجة و توزعها على شكل التالي
1مليون
1 مليون
شراء مواد من طبقة عقيمة
تحتفظ هذه الطبقة ب 2 مليون فرنك من أجل سد حاجياتهم مثل :
ـ المواد الغذائية
ـ البذور
ـ الحيوانات
توزع 3 ملايين على شكل التالي :
ـــ 2 ملايين إلى ملاك الأراضي (طبقة الملاك) نظير (الإيجار ، الضرائب)
ـــ 1 مليون من أجل شراء كل ما يحتاجونه من الطبقة العديمة
1 مليون
الطبقة العقيمة
النفقات غير الإنتاجية أي ما يدفع إلى أهل الصناعة و التجار
2 مليون
الحاجيات الخاصة + المواد الأولية
تحصل على 2 مليون 1 مليون من طبقة المنتجة و1 من طبقة الملاك
توزع الطبقة العديمة 2 على شكل التالي
الطبقة المنتجة